النساء والطب

قرأتُ في المقتطف الاغر في الصحيفة ٣٠٢ من العدد الثاني لسنة ١٩١٢ نبذة من سيرة الطبيبة الشهيرة الدكتورة صوفيا جكس بليك التي ادّت خدماً مشكورة لتعميم فن الطب بين بنات عصرها ومصرها فبعث ذلك فيَّ شوقاً الى كتابة مقالة وافية التبع فيها تاريخ هذا الفن وانتشاره بين النساء والخصّ اهم الادوار التي مرت به مخلداً على صحائف اكبر مجلة عربية ذكر نساء فاضلات تفانين في سبيل خدمة الهيئة الاجتماعية ولم يبقَ من آثارهنّ الاّ النزر اليسير الذي صانتهُ صحف تدوين الاخبار الخاصة وسأستقي معلوماتي من معين رائق هو مجلة « مشورة النساء » الفرنسوية Conseil des femmes.

١ً الطبيبات في الاعصر القديمة

ان الامراض والاوجاع والاوصاب كانت تعدُّ في غابر الايام وسالف الازمان ظواهر نحس او تسلط روح شريرة على المريض . وكان دواء تلك الادواء اما استرضاء النحس او طرد الروح الخبيثة . ولا تزال هذه الاوهام حتى اليوم متسلطة على عقول الاقوام التي لم يشرق عليها نور المدنية العصرية فالطبيب والساحر سيّان في نظر هذه الامم

كانت الشعوب القديمة كلها تسلم بهذه الخرافات . فالفرس كانوا يعتقدون ان الاسقام المادية والادبية تتأتى من ارواح شريرة يسمونها دفاس وفي تراتيلهم الدينية انشيد لطرد الشياطين من المرضى . ومن تصفح تاريخ الرومان واليونان والاثور يين والكلدان يرَ فيه علاجاً واحداً للامراض حاوياً امرين احدهما سحريّ والاخر طبيّ لاعتقادهم ان العلة الظاهرة لا مندوحة من معالجتها بالمراهم والادوية والعلة الباطنة بالسحر والطلاسم والادعية . وقد كان من جراء ذلك عند الشعوب القديمة مزية اللف الكهنوتي التي اكسبت الطب نفوذاً بعيداً وسيطرة قوية

ولقد سارت الامور في مصر و بلاد اليونان على هذا النسق فان الابنية الشائقة المشيدة على الربوات المرتفعة او داخل الاجام او على مقربة من ينابيع الماء كانت معابد وعيادات ومستشفيات ايضاً . قلت معابد لان الكهنة كانوا يقومون بادارة شؤونها والمرضى والزمنى كانوا يأتون بالضحايا من كل صوب وايب مستغيثين باله الطب ومبتهلين اليه . وقلت مستشفيات لان ذوي العاهات كانوا يقيمون ردحاً من الزمان في تلك المعاهد متبعين نظاماً

لمعيشتهم بستة لم انكهنة . وكانت النساء المصريات واليونانيات يشاركن الرجال في الخدم الدينية وقد صار منهن كاهنات ولهذا كن طبيبات ايضاً . فالمرضى كانوا يقصدون العرافة التي كانت في ذلك الحين في معبد دلفي . وكانت الشاعرة آيتا من اهل القرن الثالث قبل المسيح كاهنة في معبد اسكولابيوس وجاء في رواية المؤرخين القدماء انها اعادت البصر الى كفيف من اهالي نوباكت

كثر في العصر اليوناني الروماني عدد النساء الطبيبات في بلاد اليونان العظمى (يقال لها اليوم ايطاليا الجنوبية) وكانت اليونانيات يتخرجن في مدرسة سالرن طبيبات ويذهبن الى رومة بعد انهاء دروسهن

ان الآثار النقيبة غنية بالشواهد التي تبين كثرة الطبيبات في رومة وقد عثر على قبور أقيمت تذكاراً لبعض الطبيبات . وكان بين الرومانيات اللواتي دن بالدين المسيحي نساء يزاولن الطب ومن جملتهن ثيودوسيا أم القديس بركوبيوس التي حازت شهرة بعيدة في الطب والجراحة . والقديسة نيسرات البزنطية معاصرة الملك اركاديوس المتضلعة من الطب التي شفت القديس يوحنا فم الذهب من سقام في معدته والقديس الوماً اليو يكثر من ذكرها في رسائله ممحضاً اياها آيات شكرانه ومقرظاً باحسانها

٢ الطبيبات في القرون الوسطى

يقول وينولد المؤرخ الالماني في كتابه عن النساء الالمانيات في الاعصر المتوسطة انهُ كان عند الجرمانيين كاهنات يتلون الصلوات ويمحن البركات ويخططن الطلاسم ويستعملن الادوية والعلاجات ويناجين الآلهة

والاعتقادات الخرافية والاساطير تروي شيئاً كثيراً عن النساء الطبيبات . والاساطير الالمانية البطلية تقص اخبار نساء متوحشات تدعوهن نساء الغابات والمياه وما هن الا ارواح عالمات بفن الطب

ادت النساء الجرمانيات خدماً جليلة لابناء جلدتهن بمزاولتهن الطب لما ظعنوا عن بلادهم زاحفين على الجنوب حيث اضرموا نار الحرب . فبذلن السعي في معالجة المرضى وتضميد جروح ضحايا المعارك . وكان في بلاد غاليا (اسم فرنسا قديماً) كثيرات من النساء كاهنات يمارسن الامور الدينية ويشفين الامراض . وقد حفظت فرنسا والمانيا المسيحيتان هذه التقاليد قروناً عديدة وفي اشعارهما القديمة ذكرها

٣ طبيبات باريس

كان من عادة اهل اوربا ايام الحروب الاقطاعية ان يدرّسوا بناتهم الممرضات مبادئ الطب وقليلاً من فنّ الجراحة ولاسيما تضميد الجروح . وكانت هذه الدروس تفيدهنّ في معالجة آبائهنّ وازواجهنّ الذين كانوا يحاربون ويلعبون الماب شجاعة تعرّضهم لتقصفض الاعضاء . ولم تقف منافعهنّ عند هذا الحد بل ان ايادي الحوريات القصور كانت تضمد جراحات الفرسان الغرباء منكوبي الحروب الذين كانوا يطلبون المعالجة . وكان هذا من الاسباب التي اطلقت لسان فرسان ذلك العهد بالثناء على النساء حتى اتخذوهنّ موضوع شكرانهم وقبلة حبهم

كان علم الطب في ذلك الزمان يحصل بالمزاولة والاستخدام عند طبيب من الاطباء . لان الكليات في اوربا كانت قليلة جدًّا ولم يكن فيها فرع لدرس الطب . ولم يكن في باريس في القرن الثالث عشر سوى ثماني طبيبات تعرف اسماؤهنّ اليوم

٤ الراهبات والطب

كانت الاديرة حتى غروب شمس القرن الثاني عشر مسرحًا لسيدات فاضلات ومعهدًا لراهبات عبق شذا فضائلهنّ وقد جبن الآفاق وعطّر ذكاء معارفهنّ وعلمهنّ الاقطار وطبّق صيتهنّ العمورة تخص بالذكر القديسة جرترودة التي كانت تعلم الراهبات محبيات الاديرة اللغة اليونانية والشعر والموسيقى . والقديسة ليوبا المغرمة بالعلوم التي لم تكن تترك الكتب الاّ حينما تتلو صلاة الفرض . وهرزوفيتا مؤلفة الروايات المحزنة وهرادا من اهالي لندسبرك التي اشتغلت بالآداب اللغوية وحازت فيها القدح المعلّى . وفي عدادهنّ القديسة هلدكارد الشهيرة بين نساء اوربا . فانها كانت تهتم بالطبّ اهتمامًا كبيرًا حتى انها نالت احترام معاصريها جميعهم وتركت سفرين جليلين في الطبّ يحتويان على مبادئ اختراعات في العلم الحديث وهي التي وصفت اولاً حوادث دورة الدم وقالت في تعليلها ان الدماغ مركز الحياة ولم يكن يعرف في ذلك القرن من وظائف الدماغ الاّ النزر القليل . وبينت تأثير الاعصاب والنخاع في سير الحياة . ومن يسبر تآليفها يظهر له انها التقت علم التشريح والفسيولوجيا وفاقت معاصريها طرًّا

والظاهر ان الطب كان من الدروس التي تعلم في الاديرة فقد قال مونتالمبرت : ان كثيرات من الراهبات كنّ يجمعن بين المعلومات العمومية فنّ معالجة الجروح وعلم النباتات المختلفة والفوائد التي تنتج منها لشفاء الامراض

٥ً الطب والنساء في الازمنة المتأخرة

ان القرون الوسطى التي نعدها قروناً متسكعة في ظلمات الجهل والتوحش قروناً سادت عليها الخرافات والاوهام كانت آهلة بالنساء الطبيبات اكثر من الازمنة المتأخرة . وقد حافظت ايطاليا دون سائر ممالك اوربا على تقليد الاحترام والاعتبار لخدام العلم من اي جنس كانوا . واتنفت كلياتها آثار مدرسة سالرن التي ارتقت في بعض الاحايين حتى ضاهت مدرسة الاسكندرية وكانت تقبل النساء لدرس الطب . وقد اذاعت هذا الامر تروتلا العالمة البعيدة الصيت التي ورد ذكرها في ابيات لشاعر فرنسوي قديم وذكر سيرتها الدكتور رانزي النابولي بعد ما عثر على قسم مما خطته يدها

وفي خزانة الاوراق الملكية بنابولي شواهد تخص نساء سالرن اللواتي كنّ يزاولن فنّ الطبابة والجراحة وغيرهنّ من النساء اللواتي اكسبن كلياتّ بولونيا وپادوى صيتاً بعيداً كدوروثا بوكشي الشهيرة وحنة مانزوليني التي علمها زوجها هذا الفن ولما ترملت اختارتها كلية بولونيا للتعليم فيها . وجُعلت عضواً في كلية كمانتين سنة ١٧٣٨ فانتشر اسمها في كل اوربا ودعتها ميلان ولندن و بطرسبرج متناوبةً لتحل ضيفاً في كلياتها

٦ً المكتب الطبي الباريسي والنساء الطبيبات

لما كانت السيدة حنة مانزوليني بالنة اوج الشهرة الاوربية كان عدد الطبيبات قد قلّ في فرنسا واهميتهنّ هوت من سامق عزها الى دركات ذلها . ونرى تاريخ كلية باريس مملوءاً منذ القرن الثاني عشر بالشواهد التي تظهر للعيان اخبار الحرب العوان التي اصلى نارها المكتب الباريسي الطبي ضد الطبيبات . وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٣١١ سنت الحكومة الفرنسوية قانوناً يحظر على النساء مزاولة الجراحة قبل ان يقدمنّ امتحاناً امام فاحص من ذوي الخبرة

وفي سنة ١٣٢٠ اشهر مكتب باريس الطبي الحرب على النساء الطبيبات غير ان الاوامر بقيت مدة طويلة لا يعمل بها لانها لم تجد منفذاً لها ولكن بعد مكافحة طويلة فاز المكتب بالنجاح فوزاً مبيناً ولما كان آخر القرن السادس عشر لم يبقَ في فرنسا من النساء الطبيبات الاّ بعض جراحات كنّ منسوبات الى هيئة الجراحين المستقلين عن المكتب الطبي وهذا كنّ بعيدات عن نفوذ المكتب بيد ان الهيئة المذكورة دارت عليها الدائرة وتلقت ضربة هائلة و بعد ما كان الجراحون في منزلة واحدة مع الاطباء هبطت منزلتهم وتحددت وظائفهم حتى انهُ لم يبقَ لهم شيء من ميزات الاطباء على الاطلاق

٧ الطبيبات في القرن الثامن عشر

ازهر العلم في اوربا في القرن الثامن عشر وكانت العادة عند السيدات سنة ١٧٨٠ ان يضعن في ردهات الاستقبال قاموساً في التاريخ الطبيعي ومقالات في الطبيعيات والكيمياء وكن يحضرن الاختبارات العلمية ويأخذن دروساً في الطبيعيات . وسنة ١٧٨٦ لان رخصة الحضور في مكتب فرنسا Collége de France وفي القرن الثاني عشر كانت المركيزة فوير Voyer تحضر في العمليات الجراحية والكونتس كوني Coigny تشرح بيدها ولكن ثلاث نساء نلن التبحر العلمي في الدروس الطبية وهن الآنسة بهرون والسيدتان دركونفيل ونكر

ولدت الآنسة بهرون Béhéron من ابوين فرويين يسكنان ضواحي باريس ولما يملكان ثروى تقير وكانت ولادتها سنة ١٧٣٠ ولما ادركتها المنية كانت في الثامنة والخمسين من عمرها وكانت منذ صغرها شديدة الميل الى علم التشريح لكن ضيق يدها منعها من تحقيق امنيتها . وقدرت بعد الجهد الجهيد ان تجمع مبلغاً زهيداً من المال ومع ذلك لم تمكنها الفرص من حضور علم التشريح الا مما تدر لكن ثباتها تغلب على جميع الصعوبات . ولما كان اليوم الثالث من شهر مارس (آذار) سنة ١٧٧١ زار اكاديمية العلوم ولي عهد اسوج الذي جلس بعدئذ على كرسي الملك باسم غوستاف الثالث فعرضت الآنسة المذكورة على جلالته جسماً صناعياً اذهله وقضى عليه بالعجب العجاب كما اذهل جميع الحضور لاتقانه الغريب . وقد اسهب كاتب في ما كتبه عن هذه السيدة وعن اختراعاتها حيث قال : كنت اتصور انها تشخص تركيب البدن فلم تكتفي بتركيبه مع جميع اعضائه الداخلية والخارجية بل انها عملت جميع الاعضاء كل واحد على حدة وقد اجادت كل الاجادة في صنعها وان سألتم من اي المواد ركبت هذه الاعمال الصناعية تروني عياً عن الجواب وانما اعلم يقيناً انها ليست من الشمع لان النار لا تؤثر فيها واعرف ايضاً ان لا رائحة فيها ولا يتطرق الفساد اليها . واذا فحصت داخل الرأس والرئة او القلب او غير قسم من الاعضاء الرئيسية تجد صانعتها قد قلدتها بكمال الدقة واتقنت الاقسام الصغيرة وصبغ الالوان الصعبة حتى يعسر عليك ان تميز بين الصناعة والطبيعة

ان الفارس الشهير پرنكل رأى هذه الآثار لما زار مدينة باريس منذ سنوات فلائل فذهل من دقة عملها وقال : لا يعوزها شيء لتكون طبيعية قابلة الفساد

وكان مادام دركونفيل Mme. D'Arconville ولع في علم تركيب الابدان فاشتغلت بالطب وابقت تأليفاً في الدرجة الاولى من الاهمية بين التآليف التي خطتها انامل النساء وذلك في المواد المعفنة والمضادة للعفونة وسيأتي الكلام على السيدة نكر مصلحة المستشفيات الفرنسوية

٨ المرأة ادخلت الكينا في المعالجة

في سنة ١٦٣٨ اعترى الكونتس شنشون Chinchon امرأة نائب الملك في بيرو مرض عضال في مدينة ليما ولما بلغ خبر مرضها فرنسوى لويز دي كازار القائد الكبير في مدينة لوكرا ارسل اليها قرفة شجرة تنبت في الجبال وكان سكان تلك البلاد يعالجون بها الحمى المرزغية فشفيت سريعاً باستعمالها هذه القرفة . ولما عادت الى اوربا سنة ١٦٤٠ اشهرت هذا الدواء وشفت به عدداً وافراً من المرضى الذين كانوا يسكنون ضفاف نهر التاج و بقي ذكرها حياً حتى اليوم في نواحي قصر شنشون حيث تمطر عليه البركات من السماء . والكونتس الموماً اليها افادت الكردينال لوكا بهذه الوصفة وهو نقلها الى رومية سنة ١٦٤٩ ثم شاع استعمالها في كل اقطار اوربا وعرفت باسم « قرفة الكونتس » ثم بقرفة بيرو واخيراً باسم الكينا . وقد ادخل اليسوعيون قسماً كبيراً منها الى اوربا

ان زمرة من النساء الفاضلات اورثن في عهد الكونتس شنشون كليات اسبانيا صيتاً حسناً و بينهن من تربعن على بساط التعليم ولما كان الكلام على الطبيبات فلا يسعنا الا ان نذكر على الاقل مادام سابكو Mme. Sabuco التي خلفت تركة علمية كبيرة وهي عدد كبير من الكتب تفتخر بها النساء الطبيبات كما تفتخر اسبانيا

٩ الاكتشافات الطبية في القرن الثامن عشر

في عهد الملك هنري الخامس أعلن قانون يمنع النساء من مزاولة الطبابة ومن تجرأ منهن على مخالفة هذا القانون يحكم عليها بالسجن وقد استثني من تبعة هذا القانون بعض نساء شهيرات مثل اللادي حنة هالكت Lady Anne Halkott والبصابات كونتس كانت Elisabeth Comtesse of Kent التين تعلمتا هذا الفن ليس لمزاولته بل رغبة فيه ولهاتين السيدتين فضل يذكر فيشكر

وكان القدح المعلى في الجراحة في القرن الثامن عشر للنساء الانكليزيات وقد حفظ لنا التاريخ اسم كاترينا بول Catherina Bowier التي اشتهرت كثيراً وحنة اسطيفان

التي اكتشفت سنة ١٧٣٣ دواء ناجعاً للحصاة وقد اشترى منها المجلس النيابي هذا العلاج ب ٢٣٫٠٠٠ فرنك وكان هذا العلاج يقوم في احوال كثيرة مقام العملية الاعتيادية التي كانت مخطرة في ذلك الحين. وقد افاد هذا الاختراع فرنسا فائدة جليلة ولو من باب العرض فان الفرنسويين شرعوا يحللون ذلك العلاج فتوصلوا الى استعمال ماء فيشي المعدني

١٠ امرأة جليلة ادخلت تلقيح الجدري الى اوربا

سنة ١٧١٦ جاء الاستانة سفير انكليزي اسمهُ مونتاغي وكانت لهُ زوجة من ربات الاقلام فاهتمت اهتماماً كبيراً بعادات الشرق التي لم تكن معروفة في ذلك الحين لدى الاوربيين وخالطت الشرقيين وفهمت منهم انهم يستعملون منذ عهد بعيد التطعيم للوقاية من فتك الجدري واليك ما قالتهُ هذه السيدة عن هذا الاكتشاف في رسالة انفذتها الى احد اعضاء عائلتها « اما عن الامراض فاني ساقول لك شيئاً يورث فيك رغبةً لتكون في القسطنطينية. ان مرض الجدري هذا المرض المفجع الذي يفتك بيننا فتكاً ذريعاً لا خوف من خطره في اسطنبول بواسطة التطعيم. والتطعيم هو صناعة بعض نساء متقدمات في السن قد خصصن لهذه العمليات التي يعملنها في الخريف حين دنو شهر سبتمبر (ايلول) بعد مرور الحر الشديد » . وبعد ما اسهبت في وصف العملية تكلمت عن قلة الوفيات بهذا الداء بواسطة العملية . وعن فوائدها الطبية الى ان قالت ان حبي للوطن يسوقني لان اتخذ كل التدابير وابذل اجل الاهتمام لانشر هذه الطريقة بين ظهرانيّ اهل انكلترا وكنت احب ان اكتب ذلك الى بعض اطبائنا لو كنت اثِقُ كل الثقة ان بينهم من يتفانى ويضحي قسماً من ثروته ودخله في سبيل الانسانية فاذا شفي الله حياة ورجعت الى وطني فمن المحتمل ان شجاعتي تدفعني الى مكافحة هذا الداء

وفي ١٨ مارس (آذار) سنة ١٧١٨ لقحت ابنها وعمرهُ ثلاث سنوات في قرية من قرى اسطنبول . وحين عودتها الى انكلترا نشرت كتابات جمة انتفعت بها الامهات ونساء البلاط بعملية التطعيم وكانت نتيجة كتاباتها ان الحكومة اذنت في تجربة التطعيم في خمسة من الجناة الذين صدر الامر باعدامهم وقد زجوا في سجن نيوغايت Newgate فنجحت العملية نجاحاً باهراً وصدر عفو عن المجرمين المذكورين . وتكررت الاختبارات العملية في اولاد مستشفى الايتام وكان النجاح رائدها . ثم عمّ استعمال التطعيم رويداً رويداً

١١ طبيبة بولونية في القرن الثامن عشر

في القرن الثامن عشر كان في بولونيا طبيبة مشهورة اسمها مدام هلبر Halpir حياتها تشبه رواية مؤثرة ولهذا يحق ان نسرد ترجمتها . ولدت في ليثواني نحو سنة ١٧١٨ وفي الخامسة عشرة من عمرها اقترنت بطبيب الماني خاص بمعالجة العيون وكانت على جانب عظيم من الذكاء فشرعت تدرس الطب عليهِ وتساعدهُ في شغلهِ واقتبست منهُ معلومات واسعة اذاعت صيتها في القسطنطينية وقصدها المرضى من كل فجٍّ وكانت تعالج النساء (الحريم) والرجال من عُلية القوم الذين يقصدونها . ومما روّج سوق شهرتها شفاؤها اماماً كبيراً من ائمة السلطان وكان مستشاراً اميناً معروفاً بالفضل والكمال . وعلى اثر ذلك صارت طبيبة القصر السلطاني وامر السلطان باعطائها بيتاً وصيدلية قرب قصره . ثم هجرها قرينها فعقدت النية على الرجوع الى بلادها مع ابنةٍ لها فعارضتها في سفرها حوادث لم تكن تخطر على بال . عرّجت على ادرنه خالية الوطاب صفر اليدين قليلة البال لانها لم تكن تعرف وسيلة للوصول الى مسقط رأسها الاّ ان معرفتها بالطب سهلت لها العقبات فانها شفت في ادرنه كثيرين من ذوي العاهات والاسقام ومنهم رجل اسرائيلي كانت قد تسلطت عليهِ الاوهام والاسقام اثر وفاة امرأتهِ . فاقراراً بفضلها نقدها مبلغاً من المال تمكنت بهِ من مواصلة سيرها وكانت شهرتها تسبقها اينما توجهت فاستطاعت جمع نقود قليلة واتفق ان لصاً من اشهر اللصوص يسمى ساري هوسينا كان بعض افراد عائلتهِ مرضى فتربص لها في اثناء مرورها في مضيق من البلقان واختطفها ولكنهُ اكرم مثواها وارجعها على الرحب والسعة واجزل عطاياهُ طيها بعد ما شفت مرضاهُ . ولما عادت الى بلادها واظبت على الطبابة وشفت جوزف راكوكزي المطالب بعرش المجر . غير انهُ شغف بها وطاردها مطاردة العشاق فاضطرت ان تهرب تخلصاً من يدهِ وتنصلاً من هيامهِ

وقد ترملت وهي في شرخ الشباب فتزوجها خابط غسوي ولكن لم يهنأ لها العيش معهُ ايضاً وبعد ما اقامت في بلاد بولونيا نحو خمس عشرة سنة انفلت راجعة الى القسطنطينية فصارت طبيبة حريم السلطان مصطفى وهناك قضت ثلث حياتها في سلام وسكينة ولم يعرف شيء من امرها بعد ذلك

ستأتي البقية يوسف رزق الله غنيمة